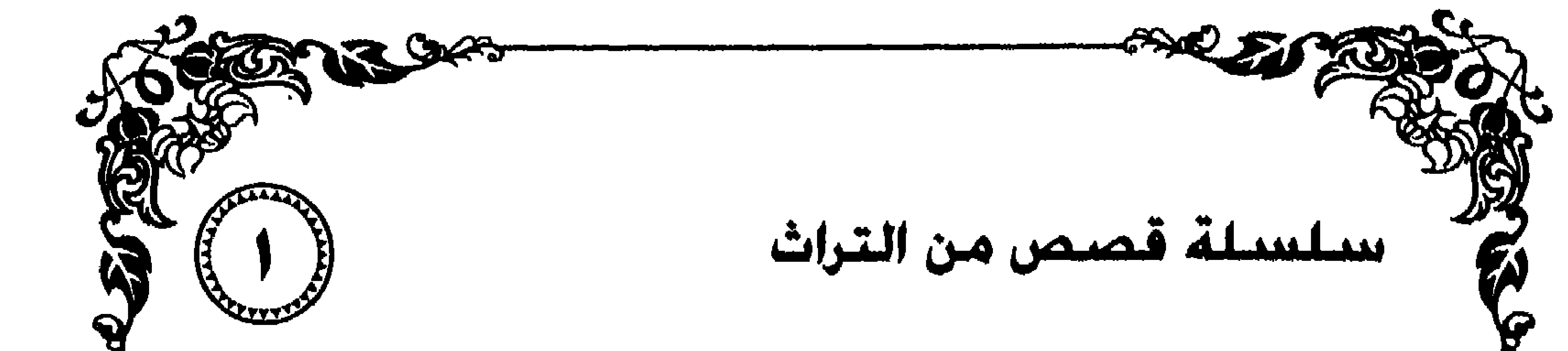


أبو جندل وأبو بصير

خليل محمود الصمادي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصمادي، خليل محمود

أبو جندل وأبو بصير.- الرياض.

٢٥ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة قصص من التراث)

ردمك: ٧ - ٩٨٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٥٤٣

ردمك: ٧- ٩٨٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/١٥٤٣

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

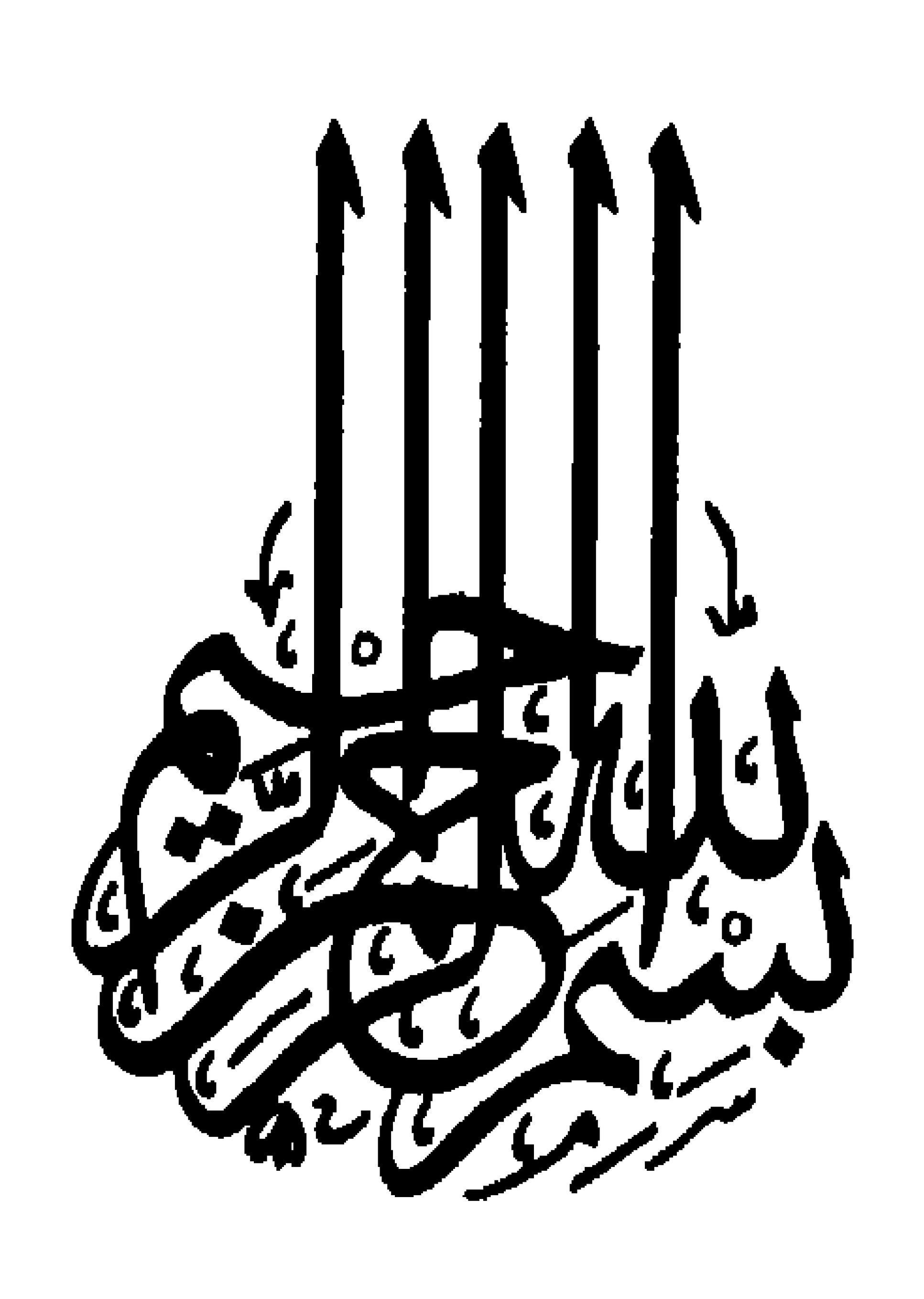
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

كتيبة المستضعفين

هَا نَحْنُ في السَّنةِ السَّادسةِ مِنَ الهجرةِ، وفي شهرِ ذي القعدةِ.

المسلمونَ يتَّجهُونَ معَ نبيهمِ الكريمِ إلى مكةَ المكرمةِ لأداءِ العمرةِ..

لقدَ طالَ الشوقُ إليها..

لمْ يكنْ مع المسلمينَ إلا سلاحُهم الخفيفُ، السيوفُ في أغمادِها، وبعضُ النبلِ والرِّمَاح.. وكلُّهم في ثيابِ الإحرامِ.

انتشرَ الخبرُ في مكةَ، فهاجَ الكفارُ وَجُنَّ جُنونُهم، تحركَ زعماؤُهُم وعقدُوا جلسَاتٍ سريعةً وعديدةً.. وأخيراً قرروا صَدَّ المسلمينَ عنْ مكةَ.

أرسَلُوا العيونَ(١) والفرسانَ لتأتيَهم بالأخبارِ، وسرعَانَ ما جاءتِ الأخبارُ مزعجةً.. فالمسلمونَ كُثْرٌ، ولا يريدونَ المواجهةَ وهمْ في الشَّهرِ الحرامِ، فكيفَ يواجهونَ مَنْ جاءَ معظمًا للبيتِ الحرامِ؟!!

وكانَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَدْ أرسلَ لهم أنَّهُ جاءَ معتمراً ولا يريدُ حربًا، وقال: «والذي نفسِي بيدِهِ لا يسألوني خطةً يعظِّمُونَ فيها حُرماتِ اللهِ إلا أعطيتهم إياها».

احتارَ المشركون في أمرِ المسلمين ماذا يفعلون لهم؟!

(١) العيون: الجواسيس وطليعة الجيش.

أيحاربونَهم أَمْ يصدونَهم؟

لقدْ قررُوا الاستيلاءَ على آبارِ الماءِ التي في طريقهم حتَّى يملُّوا ويعودوا من حيثُ أَتَوا..

تحرَّكَ المشركونَ واحتلوا آبارَ الماءِ التي في طريقِ المسلمينَ.. ولمَّا رأى رسولُ الله ﷺ ذلكَ أحبَّ ألا يصطدمَ معهم، فقررَ تغييرَ طريقَهُ وسارَ إلى الحديبيةِ..

وهناكَ في الحديبيةِ عَطِشَ المسلمونَ عَطَشًا شديدًا، فقدْ نفدَ الماءُ لَديْهِم وكَادُوا أن يهلكوا، ولَمْ يجدُوا في الحديبيةِ إلا بئرًا واحدةً مهجورةً لا ماءَ فيها..

هنا دعا رسول الله ﷺ بدلوٍ من ماءٍ فتوضأ فيه ومضمضَ فاهُ ثمَّ مجّ[1] بهِ وأمر أن يُصبَّ ما بقي من الدلو في البئرِ، ونزعَ سهمًا من كنانتهِ فالقاهُ في البئرِ، ودعَا اللهَ تباركَ وتعالى فثارَ[2] الماءُ فيها وجعلَ الصحابةُ ينهلونَ منَها ويشربونَ ويتوضأونَ ويملأونَ أوعيتَهم.

سُئِلَ جابرُ بنُ عبدِالله - رضي الله عنه - كَمْ كنتمْ؟ قالَ: لَوْ كُنَّا مِائةَ ألفٍ كفانا، كنّا خمس عشرةَ مائة.

(١) مج الماء: لفظه ورماه.

(٢) ثار الماء: نبع بشدةٍ.

علمتْ قريشٌ بالمعجزةِ فَذَهِلتْ مِنْ ذَلكَ، وأحبتْ أن تنهيَ المشكلةَ بصلحٍ يحفظُ لها ماءَ وجهِهَا.

أرسلَ رسولُ الله ﷺ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ الله عنهُ ليفاوضَ المشركينَ.. وصلَ عثمانُ إلى مكةَ فاحتبستهُ قريشٌ عندَها حتى يتشاوروا.. وشاعَ بينَ المسلمينَ أنَّ عثمانَ قُتِلَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «لا نبرحُ حتَّى نناجزَ[1] القومَ».

ودعَا - عليه الصلاة والسلامُ - إلى البيعةِ، ونَادَى مناديه: أن جبريلَ عليهِ السلام قد نزلَ على رسولِ الله ﷺ فأمرَ بالبيعة، فاخْرجوا على اسم الله فبايعوا..

سارعَ المسلمونَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ تحتَ الشجرةِ فبايعوهُ على ألا يفرُّوا أبداً وهم في همةٍ وشوقٍ إلى الجهادِ.. فقال لهم رسول الله ﷺ: (أَنْتُمْ خَيْرُ أهلِ الأرضِ اليومَ).

وما هيَ إلا لحظاتٌ حتَّى ظهرَ عثمانُ - رضيَ الله عنهُ - فاستبشَرَ المسلمونَ خيراً.

عَلِمَتْ قريشٌ بأمرِ البيعةِ، فأسرعتْ في تهدئةِ الموقفِ فأرسلتْ سهيلَ بنَ عمرو مع نفرٍ من المشركينَ لعقدِ الصُّلحِ معَ المسلمينَ، فلما رآهُ رسولُ الله ﷺ

(١) نناجز: نقاتل ونبارز.

قال: (قد سهّلَ اللهُ أمركم، أرادَ القومُ الصلحَ حينَ بعثوا هذا الرجلَ).

وصلَ سهيلٌ وتكلَّمَ طويلاً ثم اتفقَ معَ رسولِ الله ﷺ على قواعدِ الصلحِ، وهي:

- أَنْ تتوقفَ الحربُ بينَ الطرفينِ عشرَ سنينَ.
- أَنْ يرجعَ المسلمونَ إلى ديارِهم دونَ طوافٍ على أن يعودُوا في العامِ المقبلِ ليطوفوا بالبيتِ الحرامِ.
- أن يردَّ المسلمونَ من أتاهم مِنْ قريشٍ، وألا يردَّ المشركونَ مَنْ أتاهم مِنَ المسلمينَ.
- من أَرادَ أنْ يدخلَ في عهدِ محمدٍ منْ غيرِ المشركينَ دخل فيهِ، ومَنْ أرادَ أن يدخلَ في عهدِ قريشٍ دخلَ فيهِ.

قبلَ النبيُ ﷺ كلَّ هذهِ الشروطِ، أمَّا المسلمونَ فداخلهم منْهَا أثرٌ عظيمٌ، وقالوا: سبحانَ اللهِ، كيفَ نردُّ مَنْ جاءَنا مسلمًا، ولا يردونَ مَنْ جاءَهم مرتدًا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّه مَنْ ذَهَبَ منَّا إِليْهم فأبعدهُ اللهُ، ومَنْ جاءَنا منهْم فرددناهُ إِليهم فسيجعلُ اللهُ له فرجًا ومَخْرجًا».

ولمَّا رأى شبابُ قريشٍ الطائشونَ رغبةَ زُعمائهم في الصّلحِ فكَّروا في خطة تَحُولُ بينهُم وبينَ الصّلحِ، فقرّروا أن يَتَسَلَّلوا ليلاً إِلى مُعسكرِ

المسلمين، ويبدأوا بالمناوشةِ استعداداً لجرِّ قريشٍ للحربِ، وفعلاً قامُوا بتنفيذِ الخطةِ، إذ خرجَ سبعونَ منهمْ ليلاً فهبطوا مِنْ جبل التنعيمِ، وحاولوا التسللَ إلى معسكرِ المسلمينَ؛ إلا أنَّ المرابطينَ في الحراسةِ قاموا باعتقالهم جميعًا، وجاؤوا بهم إلى رسولِ الله ﷺ، وقدْ قامَ بإطلاقِ سراحِهم، وعفَا عَنْهم رغبةً في الصلحِ، وفي ذلك أنزلَ اللهُ تعالى قوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الفتح: ٢٤]. وقبضَ سلمةُ بنُ الأكوعِ على أربعةٍ مِنَ المشركيَن أساؤوا إلى رسول الله ﷺ بعَد إبرامِ الصُّلحِ، فعفَا عنهم الرسولُ ﷺ.

اتفقَ رسولُ الله ﷺ وسهيلُ بنُ عمروٍ على هذه الشروط، وأحبّا أن تكونَ مكتوبةً في صحيفةٍ، فأمرَ رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه أن يكتبَ الكتابَ، فقالَ لهُ: اكتبْ بسمِ الله الرحمن الرحيم.

عندها قالَ سهيلُ بن عمروٍ:

ـ لا نعرفُ الرحمن الرحيم، اكتبْ باسمكَ اللهمَّ.

قالَ النبيُّ ﷺ: اكتبْ باسمكَ اللَّهمَّ، ثم قال لعليٍ: اكتب هذا ما صالحَ عليه محمدٌ رسولُ الله ﷺ..

قَال سهيلٌ: لوْ كنا نعلمُ أنكَ رسولُ اللهِ لصدقناكَ ولم نكذّبْكَ!! ولمَا صددْناكَ عن البيتِ ولا قاتْلناكَ، ولكنِ اكتبْ محمد بن عبدِ اللهِ.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنِّي رسولُ اللهِ وإنْ كذَّبتموني».

عندَها كانَ عليٌّ قد كتبَ (محمدٌ رسولُ الله ﷺ)، فقال له الرسول ﷺ: امْحِه.

فاسْتثقلَ عليٌّ ذلكَ، ورفض أن يمحيَهُ رفضًا باتًا، فمحاهُ رسولُ الله ﷺ بيدِه، وطلبَ منهُ أنْ يكتبَ كما أرادَ سهيلُ بنُ عمروٍ، وذلكَ رغبةً في الصّلحِ.

استشاطَ المسلمونَ غيظًا من سهيلِ بن عمروٍ وأصحابِه، ولم ترقْ لهم هذهِ الشروطُ المجحفةُ، فقامَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ مستفسرًا، فقال: يا رسولَ اللهِ، ألستَ على حقٍ، وَهُمْ على باطلٍ؟

قال: «بلى».

قال عمر: أليسَ قتلانَا في الجنةِ وقتلاهمْ في النارِ؟

قال: «بَلَى».

قال عمرُ: (ففيمَ نُعطِي الدنيّةَ[1] في أنفسِنا؟).

قال: «يا ابنَ الخطابِ، إنِّي رسولُ الله ولنْ يضيّعَني اللهُ».

لمْ يعرفِ المسلمونَ الحكمةَ منْ هذا الصلحِ الذي كانَ وحيًا من الله لنبيه ﷺ، ولمْ يدركُوا الخيرَ العظيمَ الذي كانَ ينتظرهمْ وراءَهُ، حيثُ كانَ فاتحةَ

(١) الدنية: النقيصة.

انتشارِ الدعوةِ وانتصارِها في الآفاقِ..

وقبلَ أنْ ينهيَ الطرفانِ الصلحَ، أطلَّ عليهم شابٌّ يرسفُ[١] بأغلاله فما أن رأى المسلمينَ حتَّى ألْقَى بنفسِه بينَهم صائحًا: أشهدُ أنَّ لا إلَه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، جئتُ مستجيرًا بكم أيُّها المسلمونَ، جئتُ مهاجرًا إليكمْ، أنقذوني مِنَ المشركينَ.

لمْ يصدِّق سهيلُ بن عمروٍ أن هذا الشابَّ ابنُهُ، لقدْ صاحَ بِهِ: أجننتَ يا أبا جندل؟!! كيف تجرؤ على الخروج من مكة دون إذني؟!!

صاحَ أبو جندل: يا أبَتِ إنَّ محمدًا وصحبَهُ أحبُّ إليَّ مما تدعونني إليهِ.

لمْ يستطعْ أبوهُ كظمَ غيظِهِ فقاَم إليه فضربهُ ضَربًا مُبَرِّحًا، ولم يكتفِ بذلكَ بلْ قَطَعَ غُصْنًا من شجرةٍ وصارَ يهوي عليهِ بضرباتٍ موجعةٍ لم تزدْهُ إلا إيمانًا ويقينًا.

ثارتْ مشاعرُ المسلمينَ، وكادَ بعضهُمْ يهجمُ على سهيلٍ ليَحُوْلَ بينَهُ وبينَ أبي جندلٍ، وفاضتْ عيونُ بعضِهم تأثرًا لما شاهدوهُ في هذا الموقفِ المؤلمِ.

طلبَ رسولُ الله ﷺ من سهيلٍ أن يسمحَ له بأبي جندلٍ، وقال له: «إننا لمْ نقضِ الكتابَ بَعْدُ»، فقالَ سُهيلٍ: هذا أولُ ما أقاضيك عليهِ، وهدَّدَ بفضِ الاتفاقِ إنْ رفضوا إعادةَ أبي جندلٍ لهُ، وتذكَّرَ يومَ بدرٍ عندما انحازَ

(١) يرسف: يمشي مقيدًا.

ابنُهُ عبدُ الله إلى المسلمينَ فقاتلَ معهم وأبلى بلاءً حسنًا فشمتتْ به قريشٌ، وعزمَ على ألا يتركَ المجالَ لأحدٍ يشمتُ بهِ مرةً أخرى في انحياز أبي جندلٍ للنبيّ ﷺ .

حاولَ عليه الصلاةُ والسلامُ معه مرارًا ولكن دون جدوى، ولما علم أبو جندل بمصيره صاح قائلاً: أيُّها المسلمونَ، أنقذوني منَ المشركينَ ولا تردونِي إليهم.. إنهم يريدونَ أن يفتنوني عن دينِ محمدٍ.

اقتربَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ الله عنه مِنْ أبي جندلٍ ليحثَّه على التخلصِ مما هُوَ فيهِ، فقالَ له: "اصبرْ أبا جَندلٍ، فإنّما هم المُشركُون، وإنّما دمُ أحدهم كدم كلبٍ يا أبا جندل، إن الرجُلَ ليقتلُ أباهُ في الله، والله لوْ أدْركنا آباءنَا لقتلناهُم في الله" .

وهكذا أرادَ عمر بنُ الخطابِ أنْ يحرضَ أبا جندلٍ على قتل أبيه حتى يتخلص مما هو فيه!!

لمْ يلتفتْ أبو جندلٍ إلى قولِ عمر ضَنًّا(١) بأبيهِ.. وآثر الصبرَ على الهوان حتى يجعلَ اللهُ له مِنْ أمرِهِ فرجًا ومخرجًا..

لم يتركْ رسول الله ﷺ وأصحابُه وسيلةً في إنقاذ أبي جندل ولكن أباه كان مصرًّا على موقفه عندَ ذلكَ طلبَ رسولُ الله ﷺ من سهيلِ بنِ عمرٍ

(١) ضنًا: بخلاً.

وأصحابِه أن يحسنوا معاملةَ أبي جندل، وأن يتوقفوا عن تعذيبِه وإهانته، فوافقوا.

قال عليه الصلاة والسلام: «يا أبا جندل اصبرْ واحتسبْ، فإنَّ اللهَ جاعلٌ لكَ ولمنْ معكَ من المستضعفينَ فرجًا ومخرجًا، إنا قدْ عَقَدنا بيننَا وبين القَوْمِ صُلحًا، وأعطَيْناهُم على ذَلكَ وأعطونَا عهدَ اللهِ أنْ ألاّ نَغدرَ بهم».

ولمَّا فرغَ رسولُ اللهِ ﷺ من الصُّلحِ أشْهَدَ عَلَيْهِ رِجَالاً منَ المُسلمينَ ورِجَالاً من قريشٍ.

رجع أبو جندلٍ إلى مكةَ في جوارِ مكرز بن حفص وحويطب بعد أن أكدا للنبي ﷺ أنه لن يُعَذَّب بعدَ اليومِ. ذُرفتْ دموعُ المسلمينَ وهم يودعونَه وكانوا يدعون له بالصَّبرِ والثباتِ

لم يفرحِ المُسلمونَ كثيراً بهَذهِ الشُّروطِ، ولم يغبْ عنهم مَشهدُ أبي جَنْدَل الذي لجأ إليهم طالبًا الحمايةَ فردَّه رسول الله ﷺ التزامًا ببنودِ الصُّلحِ.

ولما أمرهُم رسولُ اللهِ ﷺ بنحرِ الهدي والتحللِ من الإحرامِ تلكأوا[1] ولم ينفذوا أمْرَهُ لهولِ الموقفِ ودهشته التي طغتْ على عقولهم وأفئدتهم.

عندَها دخلَ النبيُّ ﷺ خيمةَ أمِّ سلمةَ مغضبًا، فشكا إليها إعراضَ المسلمين، فأشارت عليه أن يبدأهم بالتحلل ونحر الهدي، فخرجَ وفعلَ ذلكَ

(١) تلكأوا: تباطأوا.

وهمْ ينظرونَ إليه إليه فسارعوا للاقتداءِ بنبيهم ﷺ .

رجعَ المسلمونَ إلى المدينةِ المنورةِ، وفي طريقِ عودتهم نزلتْ سورةُ الفتحِ، فاستبشرَ المسلمونَ خيراً، وعادتِ الفرحةُ إلى وجوههم، ولكنّ مشهدَ أبي جندل ظلَّ يتراءى لهم.. وصاروا يذكرونَه دائمًا ويذكرونَ قوة إيمانه وعقيدتِه، ويتخيلونَ أباه سهيلاً وهو ينهالُ عليه ضربًا.

لقد وفَّى المسلمونَ عهدَهم بردّ من يصلهم من قريشٍ، ووفى حويطب ومكرز بن حفصٍ عهدَهُما بأن لا يعذبَ أبو جندل، ولكنَّ المستضعفينَ الآخرينَ الذين مُنعُوا منَ الهجرةِ كانوا يعذَّبونَ في كلِ وقتٍ، وقد ضاقتْ بأحدِهم مكةُ وقرَّر أن يلحقَ برسولِ الله ﷺ، مع علمِه أنَّ رسولَ الله قد يردُّه إلى مكةَ بناءً على الاتفاقِ المعقودِ بين الطرفينِ.

لمْ ينتظِرْ أَبُو بَصيرٍ كثيراً، فهوَ لم يعُد يحتمِلُ عذابَ المُشركين.. لقد خافَ على نفسِه ودينِه.

ومَنْ أبو بصير هذا؟ إنَّهُ واحدٌ من المؤمنين المستضعفينِ الذين ظلوا في مكة تحتَ حِراب الكفر والشركِ.

في تِلكَ الأيّام خففَ المُشركُونَ مراقَبَتهُم للمُستضعفين من المُؤمنين لعلْمِهِم أنّ محمداً سيرُدُّهم خائبينَ مقهورين.

تخلَّصَ أبو بصيرٍ من قيودِه، وهُرِعَ نحوَ المدينة المنورةِ مهاجراً..

وما أَنْ وصلَ إلى المدينةِ المنورةِ حتَّى فرحَ المسلمون بقدُومه، ولكنَّ فرحَهُم لمْ يدُم طويلاً، فقد أرسلت قُريشٌ رجُلينِ إلى المدينةِ المنورةِ لردِّه حسبَ الاتفاقِ بين الطرفينِ، ووصَلا المدينةَ وطلباه من محمد ﷺ.

ماذا يفعلُ رسولُ الله ﷺ؟

أيقبلُهُ مهاجراً وينقضُ عهدَهُ معَ قُريشٍ، أم يردّه إلى مكّة ليذوقَ من العذابَ أضعافَ ما كانَ يُلاقيه؟!!

لمْ يتردّدْ رسولُ الله ﷺ في ردِّ أبي بصيرٍ مع الرجلين إلى مكة.

وبالرغمِ من توسّلِ أبي بصيرٍ ليبقى معَ المسلمين وشفاعةِ أصحابِ رسول الله ﷺ إلا أن ذلك لم يشفع له فالاتفاقُ عهدٌ بين الطرفين ورسول الله ﷺ أجدر أن يحفظ العهود حتى مع أعدائه!!

وأطاع أبو بصيرٍ نبيَّه ونزلَ عندَ رغبتِهِ مقدراً وفاءَهُ للعهدِ الذي بينَه وبينَ قريشٍ..

وعادَ معهما ودموعُ المسلمينَ تودعه وألسنتُهم تدعو له بالثباتِ والفرجِ.

خرجَ المشركانِ من المدينةِ يصطحبان أسيرهما إلى مكةَ، وما أن وصلوا إلى ذي الحليفةِ(١) حتى شعروا بالحاجةِ إلى الراحةِ، فنزلوا عن خيلهم ليستريحوا

(١) ذو الحليفة: موضع قربَ المدينة يحرم منه المسلمون ويسمى الآن أبيار علي.

تحت ظلٍّ شجرةٍ.. سَلَّ أحدُ المُشركيْنَ سيفَهُ وهزَّه وقال: لأضربنّ بسيفي هذا في الأوسِ والخزرج يومًا إلى الليلِ، فقال أبو بصير: أوَصارمٌ سيفكَ هذا؟

قالَ: نعمْ. قالَ: ناولنيهِ أنظُر إليْه!!

وفي غفلة من الرجل ناوله السيف..

ولـمَّا قبضَ أبو بصيرٍ عليه ضربَهُ بهِ بخفةٍ حتَّى هوى على الأرضِ مضرجًا بدمائه

رأى الرجل الآخر ما حل بصاحبهِ فسارعَ إلى الهربِ مذعوراً نحو المدينةِ.. وصلَها وأبو بصير يتبعُهُ.. دخلَ المسجدَ ورسولُ اللهِ ﷺ جالسٌ فيه بينَ أصحابهِ..

رأى عليه السلام الرجلَ مقبلاً وعليه أمارات الفزعِ فقالَ: «لقد رأى هذا ذعرًا».

فأقبلَ المشرك مستغيثًا برسولِ اللهِ ﷺ.. وجاءَ أبو بصيرٍ فسلّم على النبي ﷺ وقال: وَفَتْ ذمّتُك، دفعتني إليهمَا فعَرفتُ أنهم سيعذبوني ويفتنوني عن ديني، فقتلتُ الرّجل، وأفلتَني هذا!!

قال عليه الصلاةُ والسلام: «ويل أمه[1] مسعر حرب[2] لوْ كانَ معهُ رجالٌ».

---

(١) ويل أمه: كلمة ذم، والمراد بها هنا المدح.

(٢) مسعر حرب: مثيرها ومحركها.

قال أبو بصيرٍ: أشرْ عليّ يا رسولَ اللهِ.

قالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «هذا شأنكَ في قتلِ صاحبكِ، اذهبْ حيثُ شئتَ، ولا تقعُد في المدينةِ، فإني قد عاهدتُ القومَ على ذلكَ».

خرج أبو بصيرٍ منَ المدينةِ المنورةِ لا يدري أينَ يذهبُ، وما أن ابتعد عن المدينة قليلا حتى رأى من بعيد مجموعة من الرجال يقصدون المدينة المنورة فأوجس منهم خيفة وظنَّ أن المشركين قد أرسلوهم في أثره، فاستلَّ سيفه استعداداً لقتالهم، وما أن اقترب منهم حتى صاح بهم قائلاً: السلام عليكم أيها الركب المهاجر، لقد سلَّم عليهم وعانقهم إنهم أصحابه الذين ذاقوا أشدّ ألوان العذاب من مشركي مكة إنهم خمسةٌ من المهاجرينَ قد فروا بدينهم فاجتمع بهم وأخبرهم بالذي حصل، ونصحهم بعدم الذهاب إلى المدينة وبعد مشاورات اتفقوا أن يذهبُوا إلى "العيص" على ساحل البحر، حيثُ تمرُّ منْ هُناكَ قوافلُ قريْش!!

وصلَ المهاجرون السّتةُ إلى العيصِ وأقامُوا بيتًا هُناك، واتخذوا مسجداً لهمُ يصلون فيه، وكان أبو بصيرٍ إمامَهم، وقد كان يقولُ:

اللهُ ربّي العلـيُّ الأكبرُ   منْ ينصُرِ اللهَ فسوَفَ يُنْصرُ

ويقعُ الأمرُ على ما يُقْدَرُ

وصارُوا يدعونَ العربَ الذينَ حولَهم إلى الإسلامِ، فاستجابَ لهْم

عشرات منْ بَني غفَار وأسْلم وجُهينةَ[1] وطوائفَ، من الناسِ.

وشاعَ خبرُهُم في مكةَ والمدينةِ، وصارُوا حديثَ المسلمينَ والكافرينَ، وبلغ المسلمين منهم قولُ رسولِ الله ﷺ في أبي بَصيرٍ: (ويل أمه، مسعرُ حربٍ لو كَانَ معهُ رِجَال) ففهموا قولَهُ ومَا عَنَاهُ.

ولم ينسَ رسولُ الله ﷺ المستضعَفيَن في مكةَ، وكان كثيرَ الدعاءِ لهم، وكانَ إذا صلى العشاءَ يقولُ: « اللهم نَجِّ الوليدَ بنَ الوليدِ، اللهمَّ نَجِّ سلمةَ بنَ هشامٍ، اللهَّم نَجِّ عيّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، اللهمَّ نَجِّ المستضعفَين من المؤمنين.. » .

وكان عليه السلام يدعو على المشركين في صلاة الفجر بدعاءِ القنوت، يخصُّ زعمَاءَهُم باللعن، فنزلت: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. عندها توقف النبي ﷺ عن الدعاء عليهم.

وما هيَ إلا أسابيعُ حتّى انفلتَ أبو جندل بنَ سهيل بن عمرو في سبعينَ من المستضعفينَ بمكة، حيث وضعوا خطة محكمة للهروب إلى العيص.. ونجحت خطتُهُم ووصلوا إلى هدفِهم لينضموا إلى كتيبةِ أبي بصيرٍ.

فرحَ أبُو بصيرٍ ومَنْ معهُ بهذا المددِ، واشتدَّ فرحُهُ بصحبةِ أبي جندلٍ، وعملا معًا على قيادةِ هذه الكوكبةِ المؤمنةِ في الدعوةِ والجهادِ. وأقاموا هناك

(١) غفار وأسلم وجهينة: قبائل عربية.

العديد من البيوت لتأويهم.

كانتْ قوافلُ قريشٍ تمرّ بالقربِ من العيصِ، وكانَ عددُ المسلمينَ في هذهِ الآونةِ قدْ بلَغ ثلاثمائة مقاتلٍ، فصاروا يُهاجِمُونَ القوافلَ التي تخرجُ من قُريشٍ أو ترجعُ إليها.

جُنّ جنونُ زعماءِ قريْشٍ.. ما هذهِ الأخبارُ التي تَرِدُهم من العيص؟!! وما هذا المأزقُ الذي وقعُوا فيهِ؟! لقد توقعوا أن تجلبَ لهُم بنودُ اتفاقِ الحديبيةِ العزةَ والسعادةَ والطمأنينةَ، وليسَ الشقاءَ والعنتَ الذي قذفهُ أبو بصيرٍ وصحبُهُ في وجوههم!!

لقد نَعتُوا تلكَ الكوكبَة بكلِّ نعوتِ الإرهابِ والتطرفِ، وتشاورُوا في أمرِهم ليضعُوا حداً لبطشِهِم وصولتهِم.. ولكنَّ ذكْرَى غزوةِ بدرٍ كانتْ لا تزالُ تؤرّقهُمْ.. وهؤلاءِ شبانٌ أقوياءُ ذوو بأسٍ شديد لا يخافونَ في اللهِ لومة لائم..

اجتمَع القادةُ يتدارسونَ هذا الأمرَ، وصارَ بعضُهم يلوم بعضًا، وجعلَ الواحدُ منهم يتندرُ برأي سهيلٍ بردِّ من أسلمَ إلى المشركيَن.. وجعل بعضهم يقول: ماذا لو سمحنا لمثل هؤلاء باللحاق بمحمدٍ، ألمْ يكنْ ذلكَ أفضل لنا؟!!

ولكانَ العهدُ مضَى عليهم مع محمدٍ وصحبِهِ..!!، أرسلوا شكواهم إلى رسول الله ﷺ بأمر هذه العُصْبة التي نكدت حياتهم، ولكن ماذا يفعل لهم رسول لله وهم خارج سلطتهِ؟

قــررَ زعــمــاءُ قـريشٍ أن يتنازلوا عن هـذا البند في الصلح، ويطلبـوا من محمدٍ أن يقبلَ هؤلاءِ وكل من يأتيه من المشركين مسلمًا..

وقـدَم أبو سـفـيـانَ بهـذا العرضِ إلى المدينةِ، وأخـذَ يناشـدُ النبيَّ ﷺ أن يقبلَ منْ يأتيه مسلمًا وألاّ يردَّهُ..

فـرحَ الرسولُ ﷺ بهـذا، وعلِـمَ المسلمـونَ عندهَا أن الخـيرَ كلَّ الخـيرِ في ذلكَ الصلحِ الذي كانَ وحيًا من الله لنبيه ﷺ.

انصرفَ وفدُ قريش إلى مكةَ وهـم مستبـشرون بحل مشكلتهم وزوال همهم الذي أرقهم فترة من الزمن..

لمْ يزلِ الأبطالُ في العيصِ، ولم يصلهم كتـاب رسـول الله ﷺ بالقـدوم عليه بعدُ.

مرَّتْ بهـم قافلةٌ لقريشٍ يقودُها أبو العاص بنُ الربيعِ صِهرُ رسول الله ﷺ، فأخذوا ما معَهم وأسرُوهم ولمْ يقتلوا أحداً منهم لمكانةِ أبي العاص، فهو زوجُ زينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، وهو ابنُ أختِ خديجَةَ بنتِ خويلدٍ، وكانَ أبو العاصِ يومَها مشركًا، فخلّوا سبيلَهُ فقدَم المدينةَ وتوجَّهَ إلى زينبَ رضي الله عنها وكانت عند أبيها، وذلك بعد أن فرق بينهما الإسلام.

كلَّمها أبو العاص في أصحابِه الأسرى لدى أبي بصير، فكلمتْ رسولَ الله ﷺ في ذلك، فقـام فخطب الناس فقـال: «إنّا صاهرنَا ناسًا، وصاهرْنا

أبا العـاص، فنعَم الصِّـهرُ وجدَناهُ، وإنَّه أقبلَ من الشامِ في أصحـابٍ لـه من قريش فأخذهم أبو جندل وأبو بصير فأسروهم، وأخذوا ما كان معهم، ولم يقتلوا منهم أحداً، وإنَّ زينبَ بنتَ رسولِ الله ﷺ سألتني أنْ أجيرَهُم، فهلْ أنتمْ مجيرونَ أبا العاصِ وأصحابَهُ؟! »، فقالَ الناسُ: نَعَمْ.

فلمَّا بلغَ أبا جندلٍ وأصحابه قولُ رسول الله ﷺ في أبي العاص وأصحابه الذين كانوا عنده من الأسرى ردّوا إليهم كل شيء أُخِذَ مِنْهم حتَّى العقال.

وكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أبي جندلٍ وأبي بصيرٍ يأمرُهمْ أَنْ يَقدموا عليه بمَنْ مَعَهم، ومنْ شاءَ من أصحابِهم أن يرجعَ إلى بلادِه وأهله فليرجعْ.

وصلَ الكتابُ إلى أبي جندلٍ، وكانَ أبو بصيرٍ قد مرضَ واشتَّد به المرضُ وما هي إلا لحظاتٌ حتَّى خرجت الروُح إلى بارِئها، وكتابُ رسول الله في يد أبي جندل يقرؤه..

حزنَ أبو جندلٍ وأصحابُهُ علَى أَبِي بصيرٍ الذي فتَح لهْم ثغرةً للجهادِ والتحرر من أسرِ الكفارِ، وقاموا بتغسيلِه وتكفينِه والصلاة عليه ودفنِه في مكانِه..

قدمَ أبو جندل على رسول الله ﷺ ومعهُ أكثَر أصحابِه..

فرَح النبيُّ ﷺ بمقدمِهم عليه، وفرَح المسلمونَ، وتذكروا أبا بصيرٍ،

وسألوا عنهُ، فبلغهم الخبرُ المحزنُ، فَدَمعتِ العيونُ تأثرًا لما حل بهذا البطل الصنديد . .

شهدَ أبو جندلٍ ما أدركَ من المشاهدِ، وشهد فَتْحَ مكةَ، وشاهد أباهُ سهيلاً وهو يقول للنبي صلى الله عليهِ وسلم: أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، بعد ما سمعه يعلن العفو العام ويقول لقريش: اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

رآهُ عمرُ بنُ الخطابِ فأسرَعَ إلى النبيِّ ﷺ وقالَ لَهُ: لَقَدْ رأيتُ سهيلَ بنَ عمروٍ! فقالَ له النبيُّ ﷺ: «وماذا أفعلُ به؟» قالَ عمرُ: لقد كان يخطبُ الناسَ في مكة ويُثيرُ العَداوةَ لنَا. دعْني أنْزِعُ ثنيّتيهِ(١) فلا يقومُ علينا خَطيبًا.

فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «دَعْهَا فَلعَلّهَا تَسُرّك.. لا أمثّلُ بهِ فيمثل الله بِيَ ولوْ كنتُ نبيًا».

وصدقَ رسولُ اللهِ ﷺ، وأسلَمَ سهيلُ بنُ عمروٍ وحَسُنَ إسلامُه، ولقدْ جاءَ اليومُ الذي سُرّ بهِ عمر والمسلمون.

فعندما توفيَ النبيُّ ﷺ ولحقَ بالرفيقِ الأعلى أرادَ أهلُ مكةَ الردة عن الإسلام فوقفَ سهيلٌ خطيبًا فيهم، وقال: "منْ كانَ يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ فإن اللهَ حيٌّ لا يموت.." .

---

(١) الثنية من الأضراس: واحدة من الأربع التي في مقدم الفم منهم ثنتان من فوق وثنتان من أسفل.

وكان لهذه الخطبة أثرٌ واضح في ثباتِ أهلِ مكة على الإسلام.

وقد عاهدَ اللهَ أن يجعلَ من نفسهِ مدافعًا ومناصراً للإسلامِ وأهلِه، وأنْ يقف معهم ليكَفّرَ عن مواقفهِ في الجاهلية فقال: "والله لا أدعُ موقفًا وقفتُهُ معَ المشركينَ إلا وقفتُ مع المُسلمينَ مثلهُ، ولا نَفَقَةً أنفقتها معَ المُشركينَ إلا أنفقتُ على المُسلمين مثلها.."

وسارَ مَعَ مواكبِ المجاهدينَ في معركةِ اليرموكِ واستشهَد هناكَ رضيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاهُ.

المصادر والمراجع

- السيرة النبوية لابن هشام.
- الرحيق المختوم لصفي الدين المباركفوري، دار السلام، الرياض.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.
- صحيح البخاري وفتح الباري، كتاب الشروط، باب ١٥.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد محمد أبو شهبة، دار القلم - دمشق.
- السيرة الحلبية.
- فقه السيرة، محمد رمضان البوطي.
- دلائل النبوة للبيهقي.
- نور اليقين، محمد الخضري.
- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي أحمد، الرياض ١٤١٢هـ.